رواية
غيث محامي البشر

تأليف :
أسماء تيسير العزام

غيث محامي البشر

منذ الأزل والشكوى رفيقة الأمل،في كل لحظة تنطق بها الشفاه بلا ملل،هكذا حال الوجود لا جرأة لأي أحد بأن يعترفَ بالفشل،أو أن يقدم مبرِرًا مقنعًا لما فعلَ،وإلى أي حال كان قد وصل.
في كل الساعات تتحاور القلوب وتتبادل العتاب،وفيه مئةُ بابٍ وباب،عتاب للحب،وعتابٌ للفِراق،عتابٌ للظلم،وعتابٌ للخراب،عتابٌ للطمع،وعتابٌ ليس له أسبَاب.
وتبقى الشكوى رفيقة الأمل،وتبقى قوة الإرادة تضاهي ألف جبل.
اليومَ تتمّة الألفيةِ الثانية من حساب البشر،ألفي عامٍ مرت شهدت أجيالًا وصور،فمنهم من مات واندثر،ومنهم من أبى إلا أن يخلّد له الأثر.
فالبقاء لا يكون بالجسد بل بما يفعله هذا الجسد،وزمن الخلود مرتبط بنوع الأثر وما يتركه من فائدةٍ وخيرٍ تَعمُّ على البشر.
الأرض هذا اليوم على موعدٍ مع نجمٍ طال انتظاره،وما أصعب هذا الانتظار!
حكايةٌ عمرها مئات السنين تناقلتها ألسنة الناس بأن هناك نجمًا عمره ألفي عامٍ سيسقط على الأرض ويلتقطه أحد البشر،ثم سيمنحه قدرةً عجيبة يغيّر بها العالمَ،وتمكنه من الحديث وفهم ما تحكيه كل المخلوقات وحتى الجمادات.
بدأ هذا اليوم باستيقاظ الطبيعة النائمة على قطراتٍ مداعبة سكبتها السحب بعدما سئمت من نداءٍ طويل،استجاب التراب لحبات المطر ولكن في قلبه بعض الضجر،أليس في النوم راحةٌ لي أيها المطر؟!
لمَ لمْ تسألني فأنا لستُ مستعدًا لأسقيَ هذا العالم وأرويَ زهورًا وأشجارًا وأفجِّرُ نبعًا وأُجريَ نَهرْ.
قال المطرُ وعلى وجهه بعض الغضب:أنتَ من تقول هذا ؟!
صدقَ من قال وإذا أكرمتَ اللئيم تمردا.
جحودٌ وإساءَةٌ بعدَ إحسان،والله لأشكو ما تقول إلى بني الانسان.
قال التراب:ومن هذا الإنسان الذي سيفهم حديثنا فنحن نراه أصمَ،وهو على هذهِ الحال سنينَ وأزمان.
قالت السحب:كلا هو مثلنا،ولكن لكلٍ منا لغةٌ ولسان.
سنحكي ونشكو له ما تخاصمنا عليه على طول الأيّام.
يحكى أنه في هذا الزمان سيهوي نجم الأحلام وتلتقطه يد إنسان ليكون لنا عونًا وساعدًا يحمينا ويشعرنا بالأمان.
وتحقق الميعاد وهَوَت النجمةُ البعيدةُ من أقصى السماء تسابق حبات المطر،وكان الذي يمدُّ يده من النافذةِ طفلٌ يشابهُ القمر.
غيثٌ يعشق صوت المطر،وينتظره بشوقٍ ولهفةٍ وكأنه موعِدٌ بينهما منتَظر،يحاوره ويحكي له ما يجول في خاطره،يسافر بخياله إلى عالم الأمنياتِ والآمال وهو على هذه الحال حتى وقع في يده نجم الأحلام.
غيثٌ كان يمتلك إحساسًا من نوعٍ فريد،فهو يشعر ويتأثر بالكائنات ويؤمن أنَّ لها لغةً لتتفاهمَ الأجناسُ فيما بينها،وهي لم تُخلق لنقضي بها حوائِجنا،وإنما لأنَّ لها دورًا هو أعظمُ مما نتصور.
كانت تلك الحقيقةُ التي أهّلتهُ لمصافحةِ الخطّ،وأيُّ حظ؟!
هو الآن سيغير العالم،يسمع ويفهم ما تحكيه الكائنات،ربما هذا لا يعني شيئًا عند الكثيرين،ولكن عند غيث مفتاحٌ لفَكِّ ألغازٍ وتساؤلاتٍ كثيرةٍ تجول في خاطره ولا يجد لها حلًا يوافق عقله ويرضي شغفه.
استلقى على سريره وفي يده نجمه الصغير،أسئلة كثيرة دارت في خاطره،من أين أتى هذا النجم؟

فما يعرفه عن النجوم غير ذلك،هي كبيرةٌ عملاقة تبعد عنّا آلاف الأميال،تزيِّنُ السماء منذ ملايين السنين،ومن المستحيل أن يكون حجمها هكذا.
وتوالت الأسئلة،من يملك هذا النجم؟
ولمَ أنا بالذات؟ وماذا أفعل بها؟
وفي النهاية دخل الصغير في سباتٍ عميق،ولكن ما لبث وأن رأى في منامه يدًا غريبة لا تشبه يد البشر تحمل ألماسةً فريدة لم يَرَها أحدٌ من قبل،ثم سمع صوتًا يهمس في أذنه قائِلًا:
"هذه هدية مني يا محامي البشر"
حفظ غيث هذه الكلمات واستيقظ وهو يردِّدها، لكنّه لم يعرف من صاحب الهدية،لكنه كان على يقينٍ بأن هذا ليس حُلُمًا عابرًا،بل رسالةً من نوع آخر،من طرفٍ لا يجيد الحديث ولا الكتابة،ولكنّه يشكو وبعد الشكوى لجأ إليه علَّه يكون له سندًا،أو ساعدًا يمدُّ يدًا،أو حتى كلمةً تُزيح همًا وتبرِّد قلبًا.
في الأحلام تغيب الحواس،وتستفيق الروح إلى ما تحبه وتهواه ولعلَّ هذا يفسر لنا دواخل الطفل الصغير فهو حالِمٌ ذو خيالٍ واسع،سقفه السماء لا يعرف لخياله حدًا،وهو بهذا ملك ما لم يملكه أحد.
ها هو ذا يتقلب في فراشه الدافئ يصارع سلطان النوم الذي سرعان ما ولَّى هارِبًا مهزومًا مع بزوغ فجر يومٍ جديد.
هو في هذه اللحظات يتملَّكه إحساسٌ غريب،يسمع أصواتٍ وعبارات تحجبها الأبواب والنوافذ.
تناول طعامه وأخذَ يرَتِّبُ جدول نشاطاته،وفي أثناء ذلك شعر بأن شيئًا ما يتملَّكه ولا طاقة له على حمله،أسرع نحو طاولته ووضع عليها قلمه ودفتره ولم يكترث بكتبه المنتظِرَةُ غيثًا يناظرها وتؤنسه.
خرج من البيت وكان الصباح قد تجلَّى،ووحشة الليل قد تبددت بنورٍ وضّاء،ومن هنا بدأت الحكايَة.
بدأت بعيون تتسع رويدًا رويدًا مشدوهةً مندهشة وكأنها خرجت للعالم توًا.
رباه!!
أتراني في حالة هذيان؟!
الخلائقُ تتحدث وتتحاور وأنا أستمع إليها وأفهم؟!
أحقًا ذلك الحجر يكلم صديقه؟!
وتلك الورقة تتذلل لأمِّها وتطلب البقاء؟!
رفقًا بي أيتها الأرض؛فأنا لا أستحق هذا العطاء.
ارتسمت الابتسامةُ على وجه الصغير،فلطالما تمنّى هذا.
لطالما تمنّى غيث أن يجلس محاكيًا الكائِنات:
الطيور والجبال،الأشجار والأزهار،الأحجار والبحار،هذه أمنية الصغير قد تحققت،ولكن لم يقدِّر غيث عناء هذه الأمنية،وهكذا هي مسيرة الحياة المحجوب مرغوب وكلُّ ما يستحيل الوصول إليه تعشقه القلوب.
الريح مرَّت،وهمست في أذنِ غيث:
مرحبًا بك أيها الصغير في هذا العالم الواسع الكبير.
خرجت ضحكة بدون استئذان ولكنَّ صداها ملأ أرجاء المكان.
وبكل سعادةٍ قال غيث:أهلًا بالريح!أللريح لسان؟!
قالت:نعم،لست وحدك من يملك المكان.

قال:وماذا تريدين؟
أجابت:لستُ إلا وسيطًا بين اثنين يريدان أن يتحاكما عندك أيها الإنسان.
قال:أو أصلحُ أن أكونَ قاضيًا في هذا الزمان؟
فأنا ذو العشرةِ أعوام،ولم أحكم قط بين أحدٍ كان.
قالت الريح:لقد علمنا بقدومك منذ قديم الزمان،ولقد رأيتك البارحة وفي يدك نجم الأحلام.
تفاجَأ غيثٌ وقال:وما نجم الأحلام؟
ثم قصَّت عليه الريح حكاية النجم وأخبرته بما كان.
منذ البارحة وفي خاطر الطفل مئة سؤال،أما الآن فقد داخلت الأسئلة وصار لكل سؤال مئة سؤالٍ وسؤال.
هو يملك إجابةً واحدة وهي أن تحقيق المستحيل يبدأ بسؤال.
تابعت الريح حديثها وقالت:أيها الإنسان،التراب والمطر خصمان،فاحكم بينهما بالعدل والميزان.
قال التراب:أيقظني وأنا نائم.
سكب عليَّ الماء فارتعش جسدي فقمتُ مذعورًا خائفًا،لم يستأذن مني،ولطالما دعوته ولم يجبني،وعندما يئستُ منه أفزعني،ولمّا عاتبته خاصمني.
قال غيث:وما بك أيها المطر؟ ألا تحكي لنا ما قد حصل؟
قال المطر:ماذا أقول ولساني عاجزٌ عن الحديث المطرُ رمز الحياة،وفرحةٌ لكلِّ الكائنات،تُرفع الأكفُّ إلى الإله طالبةً السقيا والعطاء.
ولكن هناك من سئمَ هذا العطاء،رضي بأن يعيش خاملًا ميتًا الخير يأتيه دون انقطاع،ولم يفكر في الشكر والثناء.
قال غيث:ما الحل برأيكُما؟
أجاب التراب:فليرتفع الماء،لا أريد منه هذا السخاء،سأعتني بنفسي،فأنا أكره المنَّ وهو عندي أعظمُ ابتلاء.
قال المطر:إذًا فليكنِ الفِراق.

سكت غيث برهةً،ثم أجاب:أوتقدران على الفِراق؟
قالها بصوتٍ فيه ارتجاف،وكأنه ذاقَ ألمَ الفِراق.
لم ينطق الاثنان بكلمةٍ واحدة.
ثم أعاد غيث السؤال:أتقدران على الفِراق؟
هل تخيل كلُّ واحدٍ منكما حياته من دون الآخر؟
المطر حبيب الأرض ولها يشتاق،لا ملجأ له إلا التراب وإلا بقي سجين الغيوم،لا يقدِرُ على الفِرار.
أما التراب فحياته المطر،وهو لا ينتظر منها الطلب والاستئذان؛لأنه يشعر بها ويعرف وقت حاجتها إليه.
عندها أحسَّ الاثنان ببشاعةِ ما تخاصما عليه،وتعاهدا بأن يبقيا على عهد المحبة مهما حصل.
استأذن غيث وأكمل مسيره كرحّالٍ متنقل كلُّه شغف ليعرف أحوال الكائنات يستمع إليها،يسألها وتسأله،يعرف ما تحتاج إليه وما تكرهه.
لم يمش طويلًا،حتى جلس تحت ظل شجرةٍ كبيرة ظهرت عليها علامات الزمن،أسند ظهره عليها،وأدار

رأسه ملامسًا جذعها.
غيثٌ بالرغم من شغفه ليعرف ما يدور حوله إلا أنه أراد الجلوس وحده لحظاتٍ يسترجع فيها الماضي والذكريات،هو يحمل بركانًا من العواطف والكلمات تشتعل وتتأجج دون إرادته،فالمشاعر كالحمم لا تخضع لقيودٍ وضوابط هي حرة ليس لأحد عليها من سلطان.
ومن المشاعر المشتعلة تتكون جزرٌ جديدة تُبنى عليها الآمال والأمنيات.
وبعد لحظات،التفت غيثٌ حوله فرأى جمعًا من الكائنات تجلس قربه تطوقه وكأنه ملك أو أمير.
قال غيثٌ:لم هذا التجمع؟
أجابت وردةٌ:قد علمنا بقدومك أيها الصغير،منذ زمنٍ طويل والجميع ينتظر هذا الإنسان الذي سيسمع شكوانا ونطلب منه ما نريد.
قال غيث:مم يشكو الورد وجمالهُ في كل يومٍ يزيد ويزيد؟!
ضحكت وفي ضحكتها حزن شديد:هذا الإنسان لا أعرف ماذا يريد!!
إذا رآني يانعةً متفتحةً يهرع إليَّ فيقطِفُني،إنه يهوى بل يعشق التخريب!
قال حجرٌ من الوردةِ كان قريب:بل هو كائنٌ عجيب،لا يرضيه مكوثي على الأرض،وأحيانًا وبدون سبب يرميني إلى مكان بعيد،ثم يلتقطني من جديد ويضعني في كل مكان غريب في حائِطٍ أو حديقةٍ أو بيتٍ ودائمًا يطلب مني المزيد.
والله إني لا أعرف ماذا يريد!!

(يريد ألّا يرى أيَّ مخلوقٍ سعيد) هكذا ردَّت عصفورةٌ وفي صوتها بع التنهيد.
الذكرى أنطقتها فقد كانت عنده في قفصٍ من حديد.
قالت:كان يمنُّ عليَّ في الطعام والشراب،وعندما يسمع بكائي يظن أنه صوتُ تغريد،فيترنم ضاحكًا مبتسمًا أيتلذذ بهذا التعذيب؟!

تعالت الأصوات فالجميع كان له من الشكوى نصيب.
قال غيثٌ:وبعد كل هذا الكلام،أتعتقدون بأني محققٌ الأحلام؟!
قال أحدهم:أولستَ سيد هذا الزمان؟
وإلا فلم أُهديتَ نجمًا؟أتراك تعجز عن تغيير ما كان؟!!
قال غيث:أيتها الطبيعة اعلمي أن للحقيقة عنوان،فالورد أجمل ما رأى الإنسان،فيه يعبر عن الحب والحنان ومنه يستخلص عطره الفتّان،وبه يقدِّم اعتذارًا أو يزور مريضًا أو يزيِّن قبرًا أبى صاحبه أن يكون طيَّ النسيان.
قالت الوردةُ:ألهذا يقطفني بنو الإنسان؟
إنه بهذا الفعل أعظم فنّان،وله دوماً أنحني ولن أخذله بعد الآن.
غيثٌ ابتسم،وقدّم لها الشكر والعرفان.
ثم التفت إلى الحجر وقال:جواهِرُ منثورةٌ عديدة الأحجام،وهي أمام العين في كل مكان،بالله عليك كيف لا يجمعها هذا الإنسان؟
وهو الذي عشق الأمن والسلام،بنى به بيتًا،شيَّد به حصنًا،أنشأ منه قصورًا وسدودًا،حفر على ظهره نقشًا وتاريخًا يُروى على طول الأيّام.

قاطعه الحجر وقال:فأنا إذا كنت رفيقًا ومُعينًا وتاريخًا له في كل عام؟!
ما أجملك أيها الإنسان!أكادُ أذوب خجلاً منك،فأنت لم تحمل لي سوى الحب،وأنا قابلته بالكره والعدوان.
قال غيث:بل أنتَ كنزٌ لا تقدَّر بأثمان.
ابتسم الحجر وقال:شرفٌ لي أن أكون خادمًا لبني الإنسان.
العصفورَةُ صرخت غاضبةً:تكون خادمًا له !!!
أفقدت عقلك؟أم أنت في حالة هذيان؟!
قلت لك كنت حبيسةً عنده شهورًا وأيام،وهو يعلم أن الحياة ليست بالمأوى والطعام.
تغافل عن شكواي وبكائي،لن أغفر له ما كان.
قال غيث:لا تتسرعي،ألا تسمعين منه؟

إنه لا يرضى هذا الظلم والهوان.
إنَّ الكلام عزيزتي يعجز عن الوصف في كثيرٍ من الأحيان،في وقت ينام فيه الفرح وتستسلم فيه القلوب للهموم والأحزان،لعلَّ صوتًا عذبًا يوقظ فيها ذكرياتٍ مضت حملها جميلُ الزمان.
أنت أيتها العصفورة من ملأ بيته بالفرح والألحان،تبددين الوحشة والظلام وتستبدلينها أُنسًا وسلام.
القفص عنده بيتٌ وأمان،والحرية التي عندكِ ليس لها أثمان يراها هو في الملجأ والطعام.
كفاكِ قسوةً على بني الإنسان!
قالت:أأنا من يُزيل عن قلبه كلَّ الأحزان؟
مسكين أيها الإنسان،ليتني علمتُ هذا لملأت لك الدنيا شدوًا وألحان.

(أقنعكي ذلك المخادع الجبان) قالت هذا بقرةٌ للمشهد كانت تطالع.
إنه لا يقول الحقيقة ويظهر لنا بعدة ألوان.
رأيته مزارعًا بسيطًا،يستيقظ عند الفجر نشيطًا يجلب الماء والطعام،وعليَّ كان حريصًا.
لا يسمح لأحدٍ بأن يقترب مني،وإذا عاديته لا يضربني،أمرض فيداويني،وبالرعي يسليني،ومن الضواري يحميني.
أحببته كثيرًا،وجعلته على قلبي أميرًا.
لم أبخل عليه بشيءٍ لقد كان لي خليلًا ورفيقًا.
فأسقيته من أضرعي حليبًا،طيبًا صافيًا مفيدًا،فصنع منه مشتقات كثيرة:أجبانٌ وألبان،ودُهنٌ للطعام،وبعد فترةٍ وجيزة رأيته مقبلًا على الحظيرة،وبيده سكينٌ طويلة.
قال لمن حوله:اجلبوا لي تلك الأميرة.
فاليوم عيدُنا،وسنقيم عليها مائدةً كبيرة.
خارت قواي،فلم أستطع التحمل،كسر قلبي وخطواتي بدأت بالتعثر.
وقعت على الأرض فأصيبت ساقي،وليت هذا فقط ما كان مُصابي،قال وبكل تَحسُّر:توقفوا هذه لعيدنا لا تصلحُ،هات السكين واجلبوا لي ذاك الحمل،وبعد الذبح أكملوا بقية العمل.
بالله عليكم! كيف أثق بمن خذل وخان؟
وقابل بالإساءة الإحسان ؟!!

هذا وحش،وليس إنسان
أين هو من الأنس والأمان؟!
لم يعرف غيث ماذا يقول؛لأنَّ الحديث معها حتمًا سوف يطول.
فقال:أما عن حسن المعاملة،فهي عندنا الرفق بالحيوان،وصّانا بها رسولنا الكريم في السنة والقرآن،علّنا ندخل بهذا الفضل فسيح الجنان.
(أوبالقتل تدخلون الجنان؟!) ردَّت عليه البقرة بأحدِّ لسان.
قال غيث:أيتها البقرة،ما هكذا تؤخذ الأمور فالذبح سنةٌ عليها عظيم الأجور وبه نُطعم الطعام ونصل الأرحام،وعلى طريق الله نرجو العبور.
الله جعل لعباده يومًا تذبح فيه الأنعام تقربًا منه وطمعًا،خلقت لتكوني لنا إلى الجنَّة مسلكًا،فما أعظمها من منّه!وما أيسرها مقصدًا!
قالت:ولِمَ نحن نضحَّى،ألا تكون أنت الأضحية؟
ثم ضحكت بسخرية،وقالت نسيت أنك لا تجيد سوى الأكل والتسلية.
قال:ومن قال لكِ،أننا بدون تضحية؟
غضبت منه،وقالت:لا تسخر مني،خذ كلامي بجديّه.
قال لها:الدين والوطن يستحقُّ منا التضحية.
قولي لي:ألا تعيشين في مأمنٍ والحياة من حولك هنيه؟من ذا الذي قدَّم الروح والدماء السخيّة لتبقى أرضه طاهرةً أبية.
قالت:أنتَ
قال:وبهذه الكلمة حلَّت القضية.
راجعت البقرة نفسها وقالت:إنه أنتَ،نعم أنتَ يا صاحب النفس النديّة،روحي لك،وأرواحنا إلى الباري ترجعُ رضيّة.
وماذا عني أنا الجبل؟
صاح بصوته العظيم،والصدى يُعيد سؤاله بلا ملل.
قال غيث:ما بك أيها الجبل؟
قال:عتابٌ صغيرٌ وبقيّةٌ من أمل.
هذا المسكين يحزنني يظن أنَّ التشبه بالجبل يكون بالتفاخر والتكبر والكسل.
ردَّ عليه غيثٌ بصوتٍ مشابهٍ:كلا،نعرف الكثير عن الجبل،نعرف عنه الثبات والصبر والأمل نعرف الشموخ والرسوخ والعليا،لا التكبر والكسل!
قال الجبل:وماذا تقول بمن يبني على رأسي قصرًا مبتذل،أو يشق في قلبي نفقًا لا يُحتمل.
أجابه غيث:الروح تهوى الارتفاع والصعود للجبل،تظل النفس فيه هادئةً مرتاحةً لا تعرف الكلل.
أما التفنن في العمل فهذا طبعه ولا يغيره مهما حصل،جسورٌ وأنفاقٌ صممت بإتقان وطرقٌ مرسومةٌ بريشة فنّان،والغاية من هذا بناء حضارةٍ لبني الإنسان.
قال الجبل:أتحفتني بإجابتك أيها البطل.
أما الآن فاسمع لحديث الشجر.
غيثٌ تعب من هذا الجدال المستمر،أغمض عينيه وبقي رأسه مستندًا على جذع الشجرة ثم قال:ماذا

فعل بها الإنسان؟فهي الظل له أينما كان!
لم تُجب الشجرة وبقيت صامته،أرادت أن تسمع حديثه غير مجادِلة،لكنها لم تحتمل فصارت الدموع ساكبة.
سقطت الدموع على وجه غيثٍ فأفاق،وقال بحرقةٍ:لمَ أراكِ باكية؟
قالت:تمنُّ عليَّ،وأنا الظل في كل مكان؟!
أنا شجرة أعطيك ثمرًا،أنقّي لك الهواء لتظل حيًا،ولا آخذ منك أجراً،أُثبتُ لك التراب في الأرض وإلا أصبحت صحراء مقفرة،لا أطلب الماء الكثير فأنا بعلٌ لا يُرتوى،على كل غصنٍ مني عاشت قبَّرة،ومن أوراقي أكلت الديدان وكل حشرة،أعطيتك الكثير فماذا أعطيتني يا ترى؟!!
أعطيتني قطفًا للثمار،وقطعًا للأغصان،اقتلاعًا للجذور،والحُجة أنه لا شيء عليكَ ممنوع.
أيعجبك أن تصنع مني عودَ أسنان؟
ما بك أيها الإنسان،ألهذه الدرجة أنا رخيصة هذا الزمان؟!!
قال غيث:والله إنكِ سيدةُ الزمان وكلَّ زمان ولكن ماذا تقولين بمن عمل حطّابًا يقطع الخشب أتظنين أن قلبه لا يتقطع وهو يعلم أنكِ لحياته السبب؟!
أنت رزقٌ أمامه،منك يصنع أثاثه وأقلامه،فضلك عليه ليس له حد فأنت الأمُّ والأب،أزهارك بهجةٌ للنظر،وصوت حفيفك يزيل الضجر،منك تقطف أطيب الثمار،وعليك تسكن أجمل الأطيار.
هل أقول لكِ المزيد؟
فأنا لا أعلم الكثير عن قلوب الأشجار،قالها بضحكةٍ بريئةٍ ليزيل عنها الحزن والانكسار.
قالت:بل تعلم عني الكثير،وأنا من اليوم سأكون لك مثل الأسير.
قال غيث:بل نحتاج منك الكثير،فأنتِ حياتنا وبدونك لا نعرف التدبير.
قامَ غيث من مكانه ومشى،وفي قلبه همٌّ وقهر فكلُّ مخلوق يحسب الإنسان ظالماً،ولا يملك سوى الصبر،انتهى به الطريق فوجد نفسه واقفًا على صخرةٍ شاهقةٍ مطلةٍ على البحر.
جلس على ظهرها صامتًا:لساعةٍ وساعاتٍ.
أُخر،ثم أزاح بيده ملامسًا وجهها وقال برقةٍ:ألا تتكلم معي هذه الأصيلة؟أم أنتِ ممن لا يهمهم الأمر.
قالت:وقفت صامدةً طول الدهر.
كيف لا يهمني الأمر؟وأنا شاهدةٌ على تقلبات العصر.
قال لها:ألكِ شكوى فَنبحثُ في الأمر؟
قالت:الصخرة لا تشكو،هي أذنٌ صاغية لكل مخلوق على طهرها مستقِرّ.
وإذا أثقلها الهم انفجرت ألا تعرف البركان المشتعل؟!
قال:نعم،وهنيئاً لك بهذا العمل.
ثم إلى البحر نظر وتأمّل،وعاد به الحنين ثانيةً فتذكر الماضي وتجمَّل.
قال له البحر:تنظر إليَّ ولا تخجل؟!وتتباكى أمامي ولا تسأل!
البحر واسعٌ وفي قلبه كلُّ مخلوق ضعيف أسماكٌ وحيتان،أعشاب ومرجان.
النظام فيه دقيقٌ بالكفة والميزان.
كلُّ كائن يسكنه قُدِّرت له لحظةٌ وأوان ثم جئتم يا بني الإنسان،وتعلمتم ركوب البحر وليت هذا ما كان.
جمعتم أوساخكم من كل مكان،وألقيتموها في مائي بدون استئذان،ماتت مخلوقاتٌ كثيرةٌ قبل الأوان.

بالله عليك يا إنسان!!
أنا أحتفظ لك بمخزون الماء،ليرتفع عاليًا يسكن حدود السماء،ثم أردّه لك نقيًا صافيًا وأنت جاحِدٌ لهذا العطاء.
لكن أنا لا أحتمل الصبر على البلاء.
يهيج الماء في أعماقي دون سيطرة فأقذفه عليكم،وأترك خلفي فيضاناتٍ وبيوتٍ مدمرة،أُناسٌ مشردةٌ،مهزومةٌ محطمة.
قال غيث:تمهل عزيزي فنحن لا نستحق منك هذا الجفاء!!
أنتَ لنا مصدر الغذاء والرخاء،وطريقاً لبلوغ الأماكن والأرجاء،ومنك نستخرج الكثير من الأشياء.
أيها البحر الكبير،الحقد علينا ليس بالأمر اليسير،فنحن نحبك،والأذى منا لا نقصد منه التحقير،أنا الآن أقف للإعتذار،وسيصلح الإنسان الجديد كل الذي صار،وتعود نظيفًا،هادئًا خالٍ من الأخطار.
تبسَّم البحر راضيًا وقال:
لكن تذكر أنَّ الوعد على الحرِّ دينٌ لا يُخلَفُ بالأعذار.
انتهى بينهم الكلام،وصغيرنا لم يستطع النسيان،ثم أراد الرجوع إلى أول مكان،ومشى يكلّم نفسه ويتساءل:كيف مرت عليهم تلك الأيام؟
غيثٌ كان تصوره غير الذي رآه،توقّع عالماً ناطقاً بالسعادة والحياة،شاكراً لفضل الإنسان عليه؛لأنَّه بنظره قدَّم له الكثير،لكنَّ الذي شاهده وسمعه كان عكس ذلك تمامًا،فالطبيعة لم تقدِّم له عذرًا،ولم تذكر له فضلًا.
هو كان كالتائِه بين أحبابه يسمع ويتألم ويواسي،ولا يعرف إلى أيِّ طرفٍ يتّجه،كان نقي الفكر والمشاعر كنقاء الماء العذب،وصافٍ كصفاء الطفولةِ في شخصه البريء.
خطر في باله أن يُغيِّر العلاقة بين الإنسان والطبيعة،بما أنّه يمتلك قوة عجيبة كما قالت الكائنات.
أراد أولًا أن يكسر حاجز الصمت بينهما ويجعل كل طرفٍ يحاور الآخر.
لم يعرف غيث كيف يفعل هذا،تساءل في نفسه قائلًا:ولكن أين ذهبت تلك القوى العجيبة التي حدَّثتني عنها الكائنات؟لعلَّها في النجمة.
أخرج نجمته الصغيرة وجعلها في قبضته،ثم حاول مرارًا وتكرارًا تحقيق ما أراد ولكنه فشل.
حزن كثيراً،فلقد أراد أن يعرف كل إنسان ما تشعر به الطبيعة إتجاهه،فما عرفه منها غير الذي كان يُتوقع.
شعر غيثٌ بأنه مُقيَّدٌ،حزين،متعب.
أسئلة كثيرة تدور في خاطره،ومشاعرُ متداخلةٌ تجتاح قلبه.
استلقى على الأرض ملامسًا صدرُه التراب،تاركًا جسده ساكنًا دون حراك.
أحس بحرارةٍ عجيبة هي أشبه بحضنٍ دافئ كان قد حُرم منه في يوم من الأيام.
أذنه التصقت بالأرض،وإذا بصوتٍ بعيد:
أيها البشر ... أيها البشر
رفع رأسه وفتح عينيه مندهشًا مكذبًا ما قد سمع!!
أرجع رأسه مصغيًا مرةً أخرى،فسمع ذاتِ الصوت:
أيها البشر ...

أيها البشر،يا من تتغنون بجمال القمر،وتعشقون عطر الزهر،وترقصون تحت حبات المطر،لو أنَّ العمر يتهادى بين المحبين؛لأهديتكم عمري وطول الأجل.
قال غيث:ومن أنتِ؟
قالت:أنا الأرض نبع الأمان،أنا لكم السهلُ والشاطئ والوديان،تهديني بذرة فأردّها لك ثمرة،تسقيني قطرة فأشق لك في كل مكان نهرًا.
لك في كل مكان على ظهري وطنًا وبيتًا،أنسًا ومخرجًا،قوتًا ومشربًا،لباسًا وملجأً.
في كل عام أمدُّ لك بساطًا أخضرًا معطرًا بأطيب أنواع الأريج،أنثر على وجهه الورد نثراً،فتصبح كالعاشق المتيم الذي يتلهف إلى لقاء حبيبه في كل عام.
أزهو لتزهو أيها الإنسان.
أتُراني أقف لك عند ذاك الزمان؟!
زمن الربيع والألوان؟!
بالطبع لا،فأنا حبيبك أيها الإنسان،يا عاشق رائحة الطين،المترنم على صوت المطر،وهبوب الريح وتكسر الأغصان،أنا لك الشتاء ذو الحلَّة البيضاء،أنا الصفاء والنقاء،ولك عندي الخير والعطاء،عطاءٌ مستمر بانزياح السحب المحملةِ بالماء،لتختال الشمس ضاحكةً مشرقةً تحيي كل إنسان،تعطيه الدفء والأمان.
وبعدَ الشمس خريفٌ بلا ألوان،وخلودٌ مع النفس والوجدان،وهكذا يمرُّ على وجهي الزمان كلُّه للإنسان,
سأل غيثٌ:وماذا فعل بك هذا الإنسان؟
قالت:تبًا له،إنه لا يبالي بعِشرة الملح والطعام،لا يعرف سوى الحرب والخراب وله في كل شيءٍ حجة وعتاب.
لوث الهواء،وقطّع الأشجار،تعدى على الطير وعلى السمك في البحار،طغى عليه الطمع والجشع فلم يأبه لرؤية الجمال.
لم هذا وأنت مني وراجع إليَّ؟
أنسيت أنكَ بشر؟!
أوّاه ... من ينصفني منكم أيها البشر؟
سؤالها على موعدٍ مع الرصاصة حضر!
أصاب صغير غزالةٍ أمام ناظرها احتضر،صيّادٌ ظنَّ أنه أخطأ التصويب،ومن مكانه البعيد أدرار ظهره ورحل.
الكلام في هذا المقام ممنوع،وحدها العيون تروي فَضاعة ما حصل.
تلك المشاعر التي خنقته من قبل تأججت كنارٍ مشتعل،الفِراق لا يعرف ألمه إلا من ذاقهُ حتى ثمل.
ومن منا لم يذق طعم الفِراق؟أولم تعتريه مشاعر الحزن والاشتياق؟من منا لا يحنُّ إلى روح سكنت قلبه سُقيت حبًا وأطعمت عشقًا وهيامًا؟
ملك القلب فأصبح سلطانه ونام بين الجفون فصارت سريره ومكانه،بنى في الجوارح بيتًا ترعرع فيه وكبر الساعة فيه عن ألف يوم ويوم.
عادت الأحداث أمام غيث تُحكى وتبدأ بأول ساعات الصباح،عندما استيقظت أمّه (نغم) على أصوات الطائرات،ودوي القنابل وأزيز الرصاص،نظرت من النافذة،رأت عالماً غير العالم.

أُناسٌ تتزاحم،تتراكض.
وجوهٌ مذعورةٌ شاحبة يلوِّنها رمادٌ أحمر، وعيونٌ يغلِّفها غواشٌ أسود تتعثر بزفرات الطريق.
ارتجف قلبها،وارتعش جسدها،دارت في أركان البيت تضرب وجهها تارةً وتمزق شعرها تارةً.
توجهت نحو حُجرة غيث حملته وغطاءَه،خرجت من البيت فاستوقفتها شجرةٌ لطالما عشقتها ولها في الخاطر ذكرى يرويها ورد الياسمين.
انتشلت منها شيئًا علّه يطفئ ما يهيج به قلبها من حنين.
استيقظ غيث تحت عتمة الغطاء،شق بإصبعه نافذةً صغيرة يرى فيها العالم حوله،سأل أمه:أليس هذا العمَّ مؤنس بائع الدكان؟
إلى أين يقتادونه؟
أجابت:هؤلاء هم باعة الوطن،تآمروا عليه ليقتلوه.
لم ينطق غيث بكلمة واحدة،ثم مشت به الأرض وساقته الدروب وهو تحت عتمة الغطاء،أحس بعدها بأنفاس متعبة وخطواتٍ متأرجحة،ثم توقف كلُ شيءٍ عن الحراك،رفعت(نغم) الغِطاء ورمت بجسدها المتعب على الرمال،نظر غيثٌ حوله فرأى البحر،قال لأمه:لم نهرب إلى البحر؟
قالت:قست علينا قلوب البشر فهربنا ليضمنا قلبٌ أوسع.
همست في أذنه قائِلة:سنعود قريبًا إلى هذا المكان،ونلعب أنا وأنت على الشاطئ نرقص على أمواج المياه،وأنثرها على وجهك وشعرك.
سنبني بيتًا ونزينه بالأصداف والمحار،أما الآن فنم في حضني ولا تبتعد عني مهما حصل.
غرق الاثنان في نومٍ عميق يحلم كلٌّ منهما بالأمل.
بعد ساعاتٍ أفاقت نغم على على ضجيج الحالمين،وقد علت أصواتهم،فليتجهز الجميع للرحيل.
اصطفوا بانتظار دورهم للصعود على القارب
سمعت نغم من أحدهم عبارة غير مفهومة:
(هربنا من الموت إلى الموت)
ارتعشت ثم ضمت صغيرها بقوةٍ حتى كادت تفتت عظامه.
صعدت على القارب وأبحروا.
غيثٌ طول هذه الرحلة بقي حبيس حضن أمه الدافِئ يتقلب فيه حيث يشاء،ويتبادلون أطراف الحديث وكأنه عناقٌ لا ينتهي.
سألها آنذاك عن الجنة،فأراد أن تحدثه عنها،قالت له:الجنة مكانٌ دافِئ أُناسها قلوبهم بيضاء لا يعرفون الحقد والكراهة،مكسوةٌ بالزهور وورد الياسمين.
قطع الصمت طريق الحديث،واستعد البحر لعاصفةٍ غضبى تطلُّ من الأفق،بدأت الأمواج تتلاطم،وهاج البحر هيجانًا هائِلًا،وأخذ يتلاعب بالمركب حتى كاد يبتلعه.
عم الذعر والخوف،وتعالت أصوات القلوب حتى أصبحت مسموعة،حضنت نغم صغيرها بقوةٍ،ثم شبكت أصابعها فالتحمت كسلسلة من الحديد طوّقت بها ظهره،ثم أصبح العالم حولَها أطياف ذكرياتٍ وصور.
استيقظ غيث فوجد نفسه بين غرباء يتفقدون جسده الذي ظهرت عليه علامات أصابعَ عنيفة،سأل:أين أمي؟

لم يستطع تمييز الكلام سوى كلمةٍ انتقاها قلبه دون إرادته:الجنة.
هاج صدره وفاضت عيناه بدموع مؤلمة اقتلعت من قلبه جمال الكون.
غيثٌ الآن يبكي بدموعٍ منهمرة،ليت الشوق يحمله إليها ليُحدثها وتحدثه،يضمّها وتضمه.
أمي الحبيبة .. اشتقت إليك .. ليتك تعودين.
هذه الكلمات فقط ما نطق به لسان غيث.
قالت له الأرض:أقبل إليَّ غيث فأنا حبيبك رمى بجسده فاحتضنته وقالت:
ستكون أمك ذهب الأرض،وعطرَ التراب.
اسمع بني،سأحكي لك حكاية حجر،وأيُّ حجر؟!
كان في زمانه غصن شجر،وموطنًا للطير،ومقصدًا يستظل به البشر،مضى عليه الزمان وقسى فوقف شاهدًا وحضر.
وبعد صراعٍ وملل سقط على وجهي،وذاب بين أجزائي،لقد أنهكه ذاك العمل!
سمعتُه يهمس في قلبي قائِلًا:ألبسني رداء الأمل.
قلت له:تمهل.اخرج وكن له جزءًا من سقف أو خزانة أو حتى وقودٌ مشتعل.
قال:كلا،بل رداء الأمل.
عانقته ووهبته أجر ما فعل،ثم عجنته في أعماقي حتى حان الأجل.
ربما تتساءل عزيزي:عن رداء الأمل؟
هو رداءٌ مظلمٌ يزداد سواده مع مرور الزمن،فيصير كالفحم المكتحل لا يرتديه إلا من أحس بحرارة الظلم،وضغط الحياه،وسوء معاملةٍ لا تُحتمل،فجلس وأراد المكوث في مكان واحد فطال عليه الدهر؛ليخرج وضّاءً منيرًا كوجه القمر،منظمًا مرتبًا،لا يقبل الكسر،كيف لا فالصبر يصنع ألماسًا من حجر!
(ألماسًا) قالها غيثٌ وعلى وجهه تعجبٌ غريب،تذكَّر حلمَه الذي لم يجد له تفسير والآن صار عنده واضحًا مفسرًا.
فالتغيير ليس بالأمر اليسير،بل يحتاج للصبر الطويل،فبعد الصبر يكون النجاح والتقدير،ومنه تولد الإرادة فتصبح كالجبل الكبير.
التغيير يبدأ من هذا الإنسان الصغير،لا يحتاج الأمر سحرًا أو تهويل،بل عملًا دائبًا يحقق المستحيل.
مرت الأيام وتوالت السنين،وغيثٌ الآن ابن التسعةِ والعشرين،ما زال يفهم حديث الكائنات،لكنه لم يبح بهذا السر لأحد.
صار محاميًا نبيلًا هدفه تحقيق العدل والإنصاف،ليس فقط بين البشر،بل بينهم وبين الكائنات.
هو الآن أعظم نصير للطبيعة على الإطلاق،يمتلك أكبر محطاتٍ لتوليد الطاقة المتجددة ومحطات تكرير المياه،وإعادة التدوير.
غيثٌ الآن صاحبَ أكبر محمية للحيوانات البرّية ومنظِمًا لحملات تطوعيه لإنقاذ الطبيعة الخضراء.
والأهم من ذلك كله هو داعيًا للسلام واحترام حقوق الإنسان،وإنهاء الحروب ونبذ الكراهية والعدوان.

غيث موجودٌ داخل كلِّ إنسان يُقرِؤُهُ منه السلام.